دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	تدهور النماذج العمرانية القديمة وأساليب المحافظة عليها : قراءة سوسيو- إيكولوجية لمدينة مستاوة التاريخية بتقرت
المصدر:	مجلة الحكمة للدراسات الإجتماعية
الناشر:	مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع
المؤلف الرئيسي:	شويشي، زهية
المجلد/العدد:	ع12
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2017
الصفحات:	271 - 284
رقم MD:	849270
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	النماذج العمرانية، التراث العمرانى، الصيانة والترميم، مدينة مستاوة، الجزائر
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/849270

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

تدهور النماذج العمرانية القديمة وأساليب المحافظة عليها
قراءة سوسيو- إيكولوجية لمدينة مستاوة التاريخية بتقرت

الأستاذة: شويشي زهية
جامعة محمد الأمين دباغين سطيف2

ملخص:

يحاول هذا المقال طرح إشكالية تدهور نماذج عمرانية في الجزائر لطالما شكل مضمونها العمراني قيمة حضارية واجتماعية وثقافية، وهنا في هذا المقال سأسلط الضوء على نماذج عمرانية أقل ما يقال عنها أنها كانت متفردة في شكلها المعماري ومضمونها التاريخي واحتوائها لقيم إنسانية واجتماعية متميزة، ألا وهي المدن الصحراوية القديمة، تمتاز تلك المدن بالطابع السكني البسيط والمتنوع الأدوار في حياة سكانها،هي اليوم تعاني التراجع والتآكل فعمران المدن القديمة في الصحراء نشأ وفق منظومة ايكولوجية انصهرت مع مرور الزمن بالطابع الاجتماعي والثقافي للمجتمعات التي شكلته من الناحية البشرية حتى أصبح أساسا متينا على الصعيد الحياتي، وفي هذا سياق سوف نشير إلى المواصفات والمميزات الاجتماعية والعمرانية للمدن الصحراوية وبالأساس مدينة مستاوة الواقعة بمنطقة تقرت وهي إحدى المناطق التابعة اقليميا لوادي ريغ، فكيف نشأت والأسباب التي أدت إلى تراجعها وتهالكها ولو بقيت بدون اهتمام ربما سيؤدي ذلك إلى زوالها. ما يقتضي تبني سياسة للمحافظة عليها كمخرج حقيقي لاستمرارها،حتى تلعب أدواراً نرى أنَّها من الأهمية في حياة قاطنيها، بهدف المحافظة على قيمهم الاجتماعية في ظل تراجع الكثير منها وبروز مظاهر الحداثة في مجال العمران، حداثة لا تتناسب مع النماذج العمرانية القديمة.

Summary

This article attempts to study the problem of deterioration of many urban models in Algeria, its urban style has always been a social and cultural value, I will focus in this article on the architectural models that are unique in their form and their cultural and historical content, these models contain a distinctive human and social values which is the ancient palaces. These construction types/styles are based on the residential principles and not on the aesthetic and artistic ones which have an artistic, architectural and cultural importance in their inhabitant's life. Today these construction styles/types tend to be an urban ruin and decline on values which consisted

all along its existance a solid base in its Distinguish it on the life level. Here I'll refer that social and urban features and the reasons of this decline, ruin or maybe its vanish. Therefore, I believe that adopting a policy to preserve it as a real issue for its continuation because of its roles, is very important for their inhabitants lives and preserve their social values from decline after the emergency of new life styles that are not fit with what was already existed.

مقدمة:

إن البحث في أساليب المحافظة من الموضوعات التي يتضمنها منهاج التخطيط الحضري. كما أنه مجال حيوي بالنسبة للنماذج العمرانية القديمة ذات البعد التاريخي، خاصة داخل المدن والحواضر، والتي تعد من أولويات سياسات التطوير الحضري. كما أنها تنطوي على حلول ناجحة لمثل تلك النماذج العمرانية خاصة التي مسها التآكل والتدهور والتشقّق والتصدع. وموضوعنا ينصب على نماذج عمرانية ذات أبعاد سكنية وليست فنية أثرية فتراجعها ومعاناتها من مشاكل هندسية يعني بالضرورة تراجع قيم حياتية واجتماعية ورموز ثقافية مهمة في حياة سكانها وفي ثقافة المجتمع ككل، وبالتالي العمل على حمايتها وصيانتها هي محاولة هامة وجادة لإحياء أساليب حياتية متميزة والعودة إلى زمن التعايش والتجانس بين أفراد المجتمع واستقرارهم جنبا إلى جنب على أساس القيم المشتركة، ولو أخذنا مثالاً على الكثير من الدول التي تعمل حكوماتها وشعوبها على صيانة مدنها القديمة ومعالمها الحضارية لوجدنا الكثير منها نجح في الإبقاء والمحافظة على السمات التقليدية لتلك المدن ومصارعة قيم الحداثة والتطور العمراني المتسارع .

في الجهة المقابلة تعاني الكثير من الأنماط العمرانية القديمة بما تحمله من سمات حضارية الإهمال والتدهور وهي بذلك تحتاج إلى الحماية وإعادة الهيكلة حتى تستطيع الاستمرار، وهي التي تمثل حيز نفسي وثقافي واجتماعي وحتى اقتصادي في نفوس سكانها، ولعل الأسباب الكامنة وراء ما بلغته حالة تلك الأنماط العمرانية المتمثلة في المدن الصحراوية المبنية على الطريقة والطراز العربي الإسلامي المتفرد في جوهر سماته، يرجع إلى ما تعرضت له من تخلف حضري. كان نتيجة لعدم تحديثه وتطويره بالتشكيلة الحداثية في البناء مع المحافظة طبعاً على الهيكل العام. وكونه ربما لا يستجيب للكثير من متطلبات الحياة العصرية التي ترجوها الأجيال الحالية. وربما كانت لوطأة العوامل الاجتماعية والاقتصادية والطبيعية تأثيرات على ذلك. ما أدى إلى إتلافها من فعل الطبيعة وقلة اهتمام الإنسان بها نتيجة لتراجع وظائفها.

وعليه ينظر إلى سياسة المحافظة بأنها أمرا هام وحيوي يقوم بترقية الأنماط العمرانية التقليدية باعتبار أن لها ارتباط كبير بما في المجتمع من قيم اجتماعية وثقافية ومعمارية. وتعد في آخر المطاف انعكاس حقيقي لإشعاع ثقافي وحضاري وكظاهرة حضرية مشتركة.[1]، ويتفق بذلك أصحاب الاختصاص بأن سياسة المحافظة هي استجابة حقيقية لحاجة ماسة للرد على التدهور الذي يصيب النسيج المعماري للمدن القديمة، والذي يؤدي إلى التقليل من مكانتها ووظيفتها داخل المراكز الحضرية ولأهمية موضوع سياسة المحافظة فإنه يتطلب عرض الجوانب المعرفية التالية:

1.البنية التقليدية القديمة لمدينة مستاوة:

تأسس النمط التقليدي القديم لمدينة مستاوة سنة 1372م، من طرف سلاطين بني جلاب الذين جعلوها عاصمة لحوض وادي ريغ منذ عام 1431م وحتى عام 1854م، ولكنها حاليا تقع في نطاق مدينة تقرت التي تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 620 كلم، وتقرت تمثل مقر لدائرة كبرى تتبع ولاية ورقلة، وتضم هذه المدينة المتوسطة الحجم إدارياً كل من بلديات تقرت المركزية وبلدية النزلة وبلدية تبسبست والزاوية العابدية. وتقع في ملتقى محورين هامين شمال جنوب وشرق غرب وهي بذلك تمثل محطة هامة للطرق التجارية التي تمر عبرها المبادلات التجارية الهامة. ساهمت هذه العوامل وعوامل أخرى سنأتي على ذكرها تواليا في تشكيل هيكلة البنية القديمة للقصور، التي تدّخل في خلقها مجموعة القيم التي تؤلف نوع المدن العربية الإسلامية تتلخص في أربعة عوامل هي: المكانة المركزية للطابع الديني والثقافي والاجتماعي، النظام الدفاعي للمدينة وأيضا كونها صرح يتلاءم مع العامل المناخي.[2]

1.1. المكانة المركزية لمدينة مستاوة:

المقصود بها مركز المدينة التي تؤدي إليها الشوارع الرئيسية الدائرية الشكل تربط أبواب المدينة بالمركز ويضم هذا الوسط العناصر الأساسية والجامعة للمدينة. كما يتوفر نفس المركز على المسجد الذي يعد مركز العبادة ويقوم المركز بالكثير من الأدوار، فهو مكان للاجتماع والالتقاء ومجال للتظاهرات الاجتماعية المختلفة، وهو أيضا مقر لما يطلق عليهم اسم الجماعة، وهم عبارة عن لجنة حكماء تمثل المجتمع وتهتم بقضاياه الدينية والإدارية وقضايا الحكم وفض النزاعات بين الناس. وقد كانت تلك الجماعات

[1] Sanpao lePiero: Pressing and restoring monuments and historical building unesco, Paris,1972,P. 42.

[2] جمعية الوفاء للتنمية، الملتقى التاريخي الثالث فترة حكم بني جلاب في منطقة وادي ريغ تقرت ورقلة، 1998، ص 72.

الرافد الرئيسي الذي يأخذ منه سلاطين بني جلاب الذين حكموا تقرت ومنطقة وادي ريغ لقرون أساليب تعاملهم مع أفراد المجتمع، ويتوفر المركز أيضا على السوق الذي كان يطلق عليه في الماضي الحاسي، هندسيا كان على شكل مربع يتجاوز طوله الأربعين متر يتوسطه المسجد، ويمكن الوصول إليه بواسطة الطرق الرئيسية. ويتفرع هذا السوق إلى أماكن تجارية تقوم بالمبادلات التجارية، وعلى مستوى هذه المدينة تقع غالبية تلك الأسواق بالقرب من الباب الشرقي للمدينة عند محور قافلة ورقلة بسكرة.[1]

لا تتوقف تجهيزات مدينة مستاوة على ما ذكرناه من هياكل بل كانت تعد مركز لسلطة دولة بني جلاب ولهذا من أهم هياكلها توفرها على مراكز الحكم من قصور مثلث آنذاك مقر لسلطة بني جلاب الحاكمة ليس فقط، على مستوى مدن تقرت بل على مستوى منطقة وادي ريغ بأكملها. ووجود قصور السلطة كما هو معروف في كل المدن القديمة والحواضر التي عرفتها الإنسانية يعني بالضرورة وجوداً لوسائل دفاعية وتحصينية تحميها من كل الأزمات التي قد تحل "حروب، غزوات". وهذا ما تتميز به مدينة مستاوة التي تتوفر على وسائل دفاعية تحيط بكل جوانبها، تساعد على تحصينها ومثل تلك الوسائل الجدران التي تتواجد على هامشها حتى تمكن السكان والحكام من الخروج منها بسهولة. وهذا تفسير يعبر عما تتمتع به مدينة مستاوة من موقع دفاعي حصين مجهز بالكثير من قلاع المراقبة والجدران السميكة التي يبلغ ارتفاعها أزيد من 2.50 م وتبعد عن بعضها لأكثر من 60 متر، متوفرة على عدة طوابق معمولة خصيصاً للمدافعين، هذه المواصفات الهندسية جعلت من مدينة مستاوة معزولة عن باقي المدن الصحراوية المجاورة لها.

ومما زاد من عزلتها أيضا هو وجود خندق يحيط بها، كان يسمى "خندق البحر" تميز هذا الخندق بعرضه الذي وصل إلى أكثر من مترين وعمق يزيد عن المترين، عد آنذاك مصدر لتجميع المياه المساعدة على تلبية احتياجات الشرب وسقي الحقول المجاورة والتابعة للمدينة.

الحديث عن وجود هذا الخندق يوصلنا إلى أن مدينة مستاوة توفرت على عدة مخارج تمثلت في أبواب رئيسية هي على التوالي باب الشرق الذي يدعى باب الخضرة والذي يمتد إلى حقول النخيل، وباب الغرب ويدعى باب السلام الذي يوصل أهل المدينة

[1] المرجع نفسه، ص 74.

إلى المقبرة، وباب جنوبية تدعى باب الغدر التي تفتح على خندق أكثر عمقا من سابقه وأعرض منه.[1]

حديثنا عن هذه المواصفات العمرانية لمدينة مستاوة القديمة يدفعنا إلى التطرق لا محالة الى العوامل التي ساعدت في بناءها،فبحكم تواجد هذه المدينة ذات الطابع المحلي في منطقة صحراوية، يلتزم الحديث عن العوامل الأساسية التي ساعدت في بناءها وجعلت منها مكانا دائما لإقامة سكان جمعتهم علاقات اجتماعية وطيدة وقيم ثقافية هذه المقدمة تفضي بنا إلى أن مدينة مستاوة وبحكم تواجدها في منطقة صحراوية قاسية من حيث الظروف الإيكولوجية من أهم عوامل بناءها بمواصفات هندسية ملائمة لحياة الناس، هو قدرتها على محاكاة العوامل المناخية الصحراوية الصعبة والتي ترتفع فيها درجات الحرارة صيفا إلى أكثر من 50 ^{0} م وشتاء تصل أدنى دراجاته إلى 0 ^{0} م ونظراً لهذه السمات عمل سكان المدينة على إيجاد حلول عمرانية وبنائية تتلاءم وتتكيف مع الوسط الطبيعي. وهذا باستخدام وسائل بناء محلية تساعد على مجاوزة الظروف المناخية القاسية،ولذلك تجد منازلهم وأحيائهم وحتى أسواقهم ومساجدهم ومحلاتهم مبنية وفق تلك الظروف. وما ميز مواد البناء المحلية والبسيطة هو أنها تتمتع بالقدرة على عزل الحرارة صيفا والبرودة شتاء،ترجمت هذه التقنيات من خلال بناء جدران المساكن بمقاييس سميكة، سماكة ساعدت على تكوين مجال عمراني متراص يتكون من أحياء عددها يشمل كل القبائل التي تمثل التركيبة البشرية للمدينة. من ايجابيات ذلك التشابك والتراص العمراني تكون الشوارع والأزقة المتفرعة التي استطاعت أن تستجيب لمتطلبات السكان "والمقصود هنا الاستجابة للظروف الطبيعية". فالتشابك بين أجزاء المساكن جعل شوارع المدينة تتفرع إلى مغطاة ونصف مغطاة تحمي من الشمس تارة ومن البرد والزوابع الرملية تارة أخرى، وهذا يدل على التلائم الذي ساد بين الإنسان والبيئة المحيطة به. فجل الشوارع ترتبط بعضها ببعض وفق أسلوب البناء المتظام مما جعل الطرق والأزقة تنقسم إلى رئيسية تؤدي إلى طرق ثانوية، "عند أهل المدينة يطلقون على الطرق الرئيسية تسمية الشارع والطرق الثانوية[2] تسمى" دروب" التي بدورها تتفرع إلى مسالك ضيقة ومسدودة في الكثير من الأحيان، لأن وظيفتها تتمثل في أنها وسيلة تساعد على الوصول إلى المنازل وتسمى في هذه الحالة أزقة.

---

[1] المرجع نفسه، ص 76.

[2] عبد الحميد إبراهيم قادري: التعريف بوادي ريغ منشورات جمعية الوفاء للشهيد تقرت 1998.

هذه المواصفات الأكيد أنها تشبه إلى حد كبير مواصفات المدن العربية الإسلامية التي كان الهدف من بناءها ليس فقط الاستجابة للمتطلبات الإيكولوجية بل أيضا للمتطلبات الاجتماعية والانسانية، ولهذا نجد مدينة مستاوة تشبه إلى حد كبير في تقسيمها المدن الإسلامية، التي تشبه مجمعاتها خلايا النحل والخلية الأساسية فيه طبعاً هو المسكن المجهز ليكون مراعيا لخصوصية الأسرة القاطنة ضمنه من توفير الحرمة والسترة. هذه العلامات تفرض علينا تحليل التركيبة المعمارية الداخلية للمساكن في مدينة مستاوة وكيف أنها استجابت للمتطلبات الاجتماعية.

2.1. طراز المساكن:

تتراص المساكن في مدينة مستاوة فيما بينها بغرض التقليل من التعرض لأشعة الشمس وباقي العوامل الايكولوجية ذلكالتراص خلق مكون ثاني يرتبط بالجانب الايكولوجي لكنه يدخل ضمن المكونات الانسانية التي جعلت من المدينة معزولة عن الخارج مراعاة للحرمة والخصوصية العائلية. لكن الملاحظة التي تميز مساكن مدينة مستاوة القديمة أن تهيئتها الداخلية كانت متشابهة في كل المساكن مع بعض الاستثناءات،فهي تحتوي في معظمها على:

-**السقيفة**: وهي مجال انتقال بين الداخل والخارج من سماتها أنها مسقفة لتسمح بعزل العائلة، ينبثق عنها في إحدى جهاتها مكان مخصص للحيوانات وفي الجهة المقابلة مخزن لتخزين الأغراض المنزلية.

-**بيت الضياف**: هي غرفة تفضي مباشرة إلى السقيفة أو إلى الخارج، تمتاز بوجود باب إضافية تمتد إلى الحوش أو وسط الدار، من أهم سمات بيت الضياف أنها مكان مخصص فقط للضيوف ولا يسمح لسواهم بدخولها غالبا ما تكون مجهزة بكل ما تحتاجه لخدمة الضيوف.

-**بيت الخلاء**: هو عبارة عن حفرة مغلقة تفرغ من وقت لآخر بواسطة الحيوانات، ويستعمل سمادها في البساتين كما يتوفر المسكن على أماكن مخصصة للحيوانات تفضي إلى الحوش تضم الدجاج والماعز والحمير وتكون غالبا بلا سقف.

-**الحوش الداخلي**: وهو المكان الوحيد المفتوح في المنزل أي بلا سقف دوره أنه يسمح بدخول الضوء والتهوية للمسكن وهو ملتقى جميع نشاطات المنزل من التنظيف وغيرها.

-**السباط**: هو مجال محيط بالحوش يحتوي على أقواس مسقفة للحماية من الشمس في الأيام الحارة، يحضر فيه الأكل وتقوم فيه نساء البيت بشؤون الغسيل،أهميته تكمن في كونه أفضل مكان للراحة والاسترخاء،ويستعمل من طرف العائلات بكثرة في الليالي

الصيفية طلباً للجو الطيف في وقت تكون فيه الغرف المسقفة جد حارة. أيضا هو مكان يسمح بالحياة دون التعرض لتقلبات الجو " من برد، شمس حارة أو مطر".

-**الغرف**: غالبيتها مستطيلة الشكل عرضها يناسب طول جذع النخلة وظائفها منظمة وهي مجال متنوع الاستعمالات " للسكن، للأكل، التحادث، النوم، النسيج ... إلخ " وأهمية هذه الغرف تحدد وظيفة صاحب البيت

-**المطبخ**: داخل هذا المجال يوجد مدخنة وأماكن لحفظ المؤونة، تستعمل خاصة في الشتاء أما في الصيف فتنتقل أعمال المطبخ إلى الطابق العلوي أو الحوش.

-**الطابق العلوي**: يسمى أيضا السطح، هو مجال غير مسقف يتم الصعود إليه عبر درج خارجي تنتقل إليه نشاطات المنزل في فصل الصيف وهو مجهز بغرفة أو إثنين تستعمل لحفظ الأثاث المستعمل صيفا أو غلة التمر.[1]

2.المواد المستخدمة في بناء مدينة مستاوة:

-**الرمل**: والذي يحتوي على الطين له خصائص لينة سمحت له بأن يكون ملاطا يستعمل للالتصاق

-التمشنت وهو عبارة عن جبس تقليدي له لون رمادي يستخرج من المقطع،"حفرة تجهز كفرن" ثم يطحن ويقطع ويرصف فوق بعضه البعض في شكل قبة بعرض 1.50 مومن مواصفاته أيضا أنه يستخدم لطلاء الجدران الداخلية.

-**النخيل**: تستعمل جذوعها كدعامات بعد قطعها طولياً إلى 2 أو 3 أو 4 أجزاء.

-**الطوب**: يتحصل عليه من خلال خلط الطين والرمل بالماء، ويستعمل على شكل قطع تسقل باليد وتجفف بتعريضها للشمس لاستعمالها في بناء الجدران الداخلية والسطح.

3.التنظيم الاجتماعي والعرقي للمدينة:

في ظل التركيبة المعمارية المتميزة التي عرفتها مدينة مستاوة فقد عمرتها تشكيلة من القبائل توزعت وفق نسيج سكاني موزع عبر أحياء. هي حي المجاهرية الذي تمثله قبيلة المجاهرية وأولاد عاشور، وحي التليس، وحي المدرة، وحي المشتاونة، وحي الوسط، وحي البعيد.

ضمت التركيبة التقليدية لمدينة مستاوة القديمة تلك القبائل والتي تدرجت في سلسلة من الوظائف نظمت حياتهم الاقتصادية والاجتماعية واستجابت لحاجاتهم العامة. فقد ميز مدينة مستاوة نظام اقتصادي وتجاري محكم قسم المبادلات العامة

[1] المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير لمدينة تقرت، المرحلة الأولى.

حسب القبائل ونوعية الأنشطة التي اشتهروا بها ومن بين ما ميز أحياء مدينة مستاوة الأسماء التي عرفت بها والتي ارتبطت تارة باسم القبيلة القاطنة على مستوى تلك الاحياء أو تبعاً للأنشطة الاقتصادية التي كانت تمارسها كحي طرحة الصوف، سوق الكتان، زقاق الذهب، ساحة الجزارين ...الخ". كما تموقعت أنواع أخرى من النشاطات الحرفية داخل المدينة لتوفير حاجات الناس كالنسيج والطرز،من جهة أخرى مورست الكثير من الأنشطة داخل البيوت حيث اعتبرت امتدادا لاقتصاد متكامل التسيير في كامل أنحاء المدينة، ولو ركزنا على البنية الاقتصادية الأساسية لمدينة مستاوة لوجدنا أن مركز نشاطها التجاري يحتله سوقان كبيران الأول يسمى:

-**سوق الصباح**: يقع في قلب المدينة القديمة بالقرب من المسجدين الكبيرين للمدينة، ميزة جعلت منه مجالاً واسعًا للتبادل التجاري، وسمي بهذا الاسم كونه سوق يومي يأتي إليه الناس من كل أنحاء المدينة، وما ساعدهم على ذلك توسطه للمدينة وقدرة السكان على الوصول إليه عبر الطرق الرئيسية متجنبين الدخول في تفرعاته الثانوية التي كانت محرمة على الغرباء من غير أهل المدينة.

-**السوق الكبير**: يقع هذا السوق قرب الباب الشرقي للمدينة، وهو أكبر الأسواق، لعب دوراً تجاريا هاماً وحيوياً سمح بتبادل السلع كالتمور والقمح المستقدم من منطقة الهضاب العليا والذهب المستقدم من إفريقيا.[1]

بعد استعراض المواصفات التاريخية والهندسية والاجتماعية والثقافية لمدينة مستاوة أصبح من الضروري التطرق إلى ما شهدته عبر تاريخها الطويل من تحولات اجتماعية وبنيوية، وأولى هذه التغيرات بدأت مع احتلال تقرت من طرف الفرنسيين سنة 1854 حيث لم يقم المحتل الفرنسي بأي إضافة على البنية العمرانية الأساسية للمدينة، بل بالعكس بدأ في تهديم المجال العمراني والدفاعي لمدينة مستاوة التي شهدت تحولين هامين عبر فترتين هما:

-**الأولى: فترة الاحتلال**:

فقدت المدينة خلالها طابعها الدفاعي بعدما أقدم المحتل على إزالة منافذ المدينة وتعويضها بمصالح ووحدات عسكرية للجيش الفرنسي، كان الهدف منها ربط كامل أرجاء المدينة لتسهيل حركة التنقل وأدى هذا لتغيير النسيج القديم للمدينة وتعويضها بمباني عسكرية وأهم تغيير الذي مس واجهة الحي التاريخي. كما تم نزع كل دفاعات المدينة القديمة التي كانت تمثل رمز لحكم بني جلاب، بعده تم طمر الخندق المحيط بها

[1] مخطط شغل الأرض لبلدية تقرت الكبرى.

لتستكمل بهدم الأسوار وكل نقاط المراقبة. ولم تتوقف همجية المحتل عند هذا الحد بل وصلت إلى درجة هدم المساجد مثل مسجد المالكية الذي كان يمثل للسكان رمزاً دينيا وعقائديا، ولم يحتفظ منه إلا بمنارته لاستعماله كقلعة لمراقبة المدينة وضواحيها. كما بدأ الاستعمار ببناء مباني عسكرية حيث تم بناء ثكنة وسكنات للضباط الفرنسيين، ومكتب عربي كما أنشأت إدارة للمدينة وهذا في سنة 1904.

-الثانية: فترة التوسع:

عرفت المدينة في تلك المرحلة تطور عمراني يشبه الطراز الأوروبي وكانت أبرز مظاهره إنشاء الطرق والشوارع الواسعة والممرات المعبدة والمنازل الحديثة والساحات. إن هذه التنظيمات الجديدة كان لها تأثير على النظام العمراني القديم، حيث قامت فرنسا بإنشاء شارع كبير يفصل جزئي المدينة بموجبه أصبحت المدينة التي يقطنها الجزائريون المسلمون تقع في جهة الغرب تشبه في شكلها طابع القصور،والمدينة التي يقطنها الأوربيون تقع في شرق المدينة حيث تم نقل السلطة المركزية إليها.

هذه التحولات شملت فيما بعد كامل جهات المدينة القديمة التي تقوت بهياكل قاعدية للاتصالات مثل إيصال خط للسكك الحديدية سنة 1914 بهدف تصدير التمور، إضافة إلى إنشاء مدرج لهبوط الطائرات جنوب المدينة كما تم مد طريق بسكرة ورقلة سنة 1958 م بعد اكتشاف البترول في حاسي مسعود، أيضا تم إنشاء طريق الوادي تقرت عام 1960 م، هذه التحولات أثرت بأشكال مختلفة على المدينة التاريخية مستاوة بل وتدهورها بشكل كبير من خلال ما عمدت إليه السلطات الفرنسية من تهديم النسيج القديم للمدينة وتهميش ما بقي منه ومن سكانه رغم التنمية الكبيرة التي عرفتها المنطقة . وإن دل ذلك على شيء إنما يدل على سياق التدهور التاريخي الممنهج الذي عرفته مدينة مستاوة، بهدف تحطيم النسيج القديم.

4.التحولات الاجتماعية والبنيوية للنظام القديم لمدينة مستاوة ما بعد الاستقلال 1962–1995:

عرفت مدينة مستاوةبعد الاستقلال تدهورا كبيرا يعود إلى عدة عوامل:

1 –بعد الاستقلال مباشرة شهدت المدينة عمليات ترحيل كبير للسكان إلى مساكن بجانب المدينة القديمة هذا لأن الدولة عمدت الى استرجاع المدينة التي رأت أنها تمثل مخزونا تاريخيا وقيمة حضارية. هذه السياسة دفعت الكثيرين ممن سكنوا المدينة إلى الرحيل عنها إلى أماكن أخرى بحثاً عن العمل والدراسة، وتقربا من المراكز الحيوية الضرورية كمراكز الرعاية الصحية والنشاطات التجارية. لكن ونظراً لتزايد عدد السكان

الكبير بعد فترة الاستقلال عرفت مدينة تقرت عدة مشكلات من أهمها عدم قدرتها على استيعاب تلك الزيادات ما دفع الكثيرين من سكانها إلى النزوح العكسي والعودة إلى مدينة مستاوة، وهذا ما أثر لاحقا على شكلها ومضمونها العمراني والاجتماعي والثقافي والاقتصادي.

2 –ظهور تحولات داخل مدينة مستاوة وتدهورها يرجع إلى إهمال ترميم مساكنها التي كانت قبل أن يعمرها سكان جدد تعاني من الهجران أو البيع من طرف سكانها الأصليين أو تركها للدولة التي لم تهتم بها بالشكل اللازم، ما أدى إلى انهيار أجزاء كبيرة منها.

3 –العامل المناخي الذي أدى وبفعل الأمطار والرياح إلى انهيار الكثير من المساكن وربما أهم حالة سجلها التاريخ حالة 1985 والتي بفعل الأمطار التي عرفتها المنطقة شهدت مدينة مستاوة انهيار 52 مسكن، في سنة 1990 ولنفس الأسباب عرفت مدينة مستاوة انهيار لبعض المنازل والخطير في الأمر أن مدينة مستاوة بنيت على شاكلة المدن الإسلامية ذات الطابع المتراص لمبررات اجتماعية ذات صلة بالحرمة والسترة والحفاظ على القيم الإنسانية الرمزية التي كان يتمتع بها المجتمع لفترات طويلة،لكن مع مرور الزمن تراجعت تلك القيم وتراجع معها الهيكل العمراني المتراص بل وأدى هذا التراص والتلاصق الى انهيار الكثير من المنازل والتأثير في بعضها البعض والنتيجة تضرر أغلبية المنازل.

4 –منذ 1962 لم تظهر الدولة أي مبادرة لإنقاذ مدينة مستاوة رغم ما صرحت به من قبل وبالتالي أصبح ذلك الإرث المعماري الثمين يعاني من عديد المشكلات ذكرناها سابقا والأكيد أن مهمة ترميم هذا المجال التراثي العريق يتطلب ميزانيات ضخمة. ومع ذلك سعت السلطات المحلية بإمكانياتها المتواضعة إلى حل بعض مشكلات المدينة كإعادة ترميم بعض مساكنها ومرافقها،لكن تبقى هذه المحاولات دون المستوى المطلوب نظراً لتواضع إمكانياتها. من جهة أخرى سطرت البلدية خطة أخرى تعد من وجهة نظرنا بسيطة ولا ترقى إلى الأهداف المرجوة وهي حين عكفت على ترميم المعلمين الدينيين المتمثلين في الجامع والسوق الكبير الذين يتوسطا مدينة مستاوة إضافة إلى البوابات الرئيسية التي تعد بمثابة مداخل للمدينة ومعالم تدل عليها من حيث الشكل المعماري والمضمون الاجتماعي.

5. أساليب المحافظة على مدينة مستاوة:

هذه المعالجة التي تضمنت نظرة إلى تاريخ مدينة مستاوة وإلقاء الضوء على تخطيطها والقيم الاجتماعية التي سادتها لفترة زمنية طويلة، وأيضا في ظل ما عرفته من تدهور هيكلي وبنائي وتراجع في رمزيتها الثقافية أصبح من الضروري وضع سياسة

للمحافظة عليها، وعلى كل ما يشبهها على اعتبار أن الجزائر تزخر بمثل هذه المعالم وتحتاج إلى خلق أساليب يمكن القول أنها توضع ضمن ما يسمى التخطيط الحضري، الذي يندرج ضمن منهاج التطوير الحضري للأبنية الأثرية، وعلى اعتبار أن سياسة المحافظة على المدن والقرى والمعالم الأثرية يعد أمراً حيوياً يرتبط بماضي الشعوب والأمم من حيث قيمها الاجتماعية والثقافية والمعمارية. وانعكاساً حقيقيا للإشعاع الثقافي والحضاري كظاهرة مشتركة بين البشرية،يتفق أصحاب الاختصاص بأن سياسة المحافظة هي استجابة حقيقية لحاجة ماسة ودعوة صريحة للرد على أي شكل من أشكال التخلف الذي يصيب النسيج المعماري للمدن ويؤدي إلى التقليل من مكانتها ووظيفتها.

تشير الأدبيات المتعلقة بسياسة المحافظة بأنها مجموعة من الطرق المختلفة التي يمكن تكريسها من أجل تطوير وتجديد وترقية جميع أنواع الأبنية التي تحتاج إلى صيانة وترميم من أجل إعادتها إلى حالتها الطبيعية وبالتالي المحافظة عليها كقيمة اجتماعية وثقافية وتاريخية ودينية، ومن ثمة أصبح لسياسة المحافظة دورا هام في إتمام ما هو ضروري من النواقص، وإدخال التعديلات اللازمة وتحسين الخدمات الاجتماعية وإعادة تأهيل المدن التاريخية وتكييفها وفق الشروط والمعايير الحضرية الحديثة

ووفق المعطيات السابقة أصبحت سياسة المحافظة على المدن والحواضر القديمة من المسائل الحيوية التي يتوقف نجاحها على الاعتمادات المالية والبشرية المؤهلة علمياً وعملياً، وهذا بحصر الأماكن المرشحة للصيانة وصيانتها ضمن ما يتماشى ويتلاءم مع وضعها الطبيعي ضمن النسيج المعماري للمدن.وهذا طبعاً يتطلب دراية بأساليب الترميم التي يمكن حصرها فيما يلي:

-مراعاة القيم الفنية للأبنية المعمارية:

أصبح من المتعارف عليه عندذوي الاختصاص في مجال سياسة المحافظة بأن هذه الأخيرة تراعي الطابع الفني الجمالي والثقافي للمدن، وهو ما يشكل المكانة الاجتماعية والنفسية المرموقة خصوصاً في نفوس سكان مجتمع المدينة –وطبعاً-أساليب الصيانة لها متطلبات.

- مراعاة العمق التاريخي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي:

بأن تحاول سياسة المحافظة في أثناء تعاملها مع المدينة التاريخية مستاوة مراعاة العمق التاريخي الذي تمثله خصوصا وأنه يعكس الحياة الاجتماعية والاقتصادية

والثقافية للمجتمع،وتعمل أساليب الصيانة على إبراز هذه الأبعاد بغية إعادتها إلى جوها الأصلي

6.أساليب الصيانة والترميم:

يعد الترميم من إحدى الأساليب الأساسية المتبعة في سياسة الصيانة ومطلباً ضرورياً كونه عين الجوهر على صعيد إعادة الاعتبار لمدينة مستاوة فقد وضعت عدة مخططات لإعادة الاعتبار لهذه المدينة القديمة سميت بمخططات العشريات وأهم تفاصيلها:

-**مخطط 1972PVD**: تلخص هذا المخطط في تهيئة ساحة هواري بومدين ساحة الحرية قديماً بعدة تجهيزاتلدعم هيكلها المعماري.

-**مخطط 1972INDED**: تضمن هذا المخطط ثلاثة مقترحات تستهدف استكمال تهيئة شارع الاستقلال من خلال اختراق الحي القديم وربطه بشارع سي الحواس.

-**مخطط المهندس المعماري أحمد كريمة**: وهو مهندس تابع لبلدية تقرت اقترح عام 1980 تعويض المساكن القديمة في مستاوة بأخرى جديدة كمسألة مرحلية حتى يتم ترميم المدينة وفق المعايير الهندسية الحديثة، مع الحفاظ على الطابع والنسيج المعماري القديم وضرورة إعادة الأسر التي كانت تقطن بأحياء المدينة إلى مساكنهم نظر العمق صلتهم بها.

-**مخطط CADAT" سطيف "** : واهتم هذا المخطط بإعادة تهيئة المركز القديم لمدينة مستاوة الذي قبل من طرف وزارة البناء والسكن سنة 1985، وتضمن هذا المخطط مرحلتين إحداهما ينظم الجانب القانوني للمشروع والثاني اهتم بإعادة البناء وذلك بوضع برنامج من أربع مراحل، لكن لم يتم الشروع في التهيئة والسبب غياب الغلاف المالي .

-**مخطط الوكالة العقارية "تقرت"** الذي اقترح تمديد شارع الاستقلال وإعادة تهيئة ساحة هواري بومدين وتجهيزها بمخطط ترقية عقارية.

-**مخطط BET–AET T** وهي دراسة أعدت سنة 1997 اقترحت إعادة إحياء المركز التاريخي لمستاوة .

-**المخططات المستقبلية**: وضعت ولم يتم المصادقة عليها بعد ابتداء من سنة 2001.

7- دواعي وأسباب صيانة وإعادة تأهيل مدينة مستاوة:

إن النمط القديم لمستاوة يمثل إرثاً معمارياً وثقافيا وتاريخيا لا يقدر بثمن، وهو الشاهد على مجتمع أنتج إطاراً فيزيائيا له علاقة مع أسلوب الحياة والتأقلم مع الوسط

الطبيعي. من خلال إعادة استعمال العناصر المعمارية القوية في المدينة إلى أشكالها التقليدية وكذا المحافظة على المعلمين الدينيين اللذان يعدان حالياً في أحسن أحوالهما يسمحان للمدينة بالحفاظ على هويتها الثقافية الوطنية عبر إعادة القيم الفنية التاريخية للمركز القديم للمدينة.

لكن رغم ما قلناه ونقوله إلا أن المدينة خاصة في جانبها السكني تعاني حاليا الكثير من التدهور الذي يهددها بالزوال في أقرب الأوقات، وهو ما يعطي الانطباع السلبي حولها.وهنا نطرح سؤال عن العناصر الأساسية التي يجب المحافظة عليها في مدينة مستاوة؟ وهذا طبعاً بعد وضع مخطط استعجالي للحفاظ عليها وعلى صورتها التاريخية. وأولى العناصر التي تستوجب المحافظة كما قلنا المسجدين اللذين هما أصلاً في حالة جيدة ومع ذلك يحتاجان إلى المزيد من الرعاية، إضافة إلى زاوية سيدي الهاشمي الواقعة في نهاية المدينة القديمة والذي اقترح استبداله إلى متحف بغية خلق أنشطة ثقافية وعلمية وسياحية، ومن بين العناصر التي من الضروري أيضا إعادة بناءها السور المحيط بالمدينة من خلال مده على شكل دائري حول المركز القديم، وتعبيده حتى يسهل الحركة على السكان ويدعم البناءات ويسمح بعدم تقطيع أوصال المركز القديم للمدينة، وربما تصل أهميته إلى درجة ربطه بالمحيط الزراعي المنتشر حولها

– أبواب المدينة أيضا بحاجة إلى إعادة بناء بغية استخدامها كمعالم تاريخية وكمداخل للمدينة.

– الأحياء السكنية: بدورها تحتاج إلى ترميم وإعادة هيكلة لكن على الطريقة التقليدية وبالوسائل الحديثة في البناء حتى تكون شاهد على ماضي المدينة وتحافظ على كل خصائص نظام المساكن التقليدية مع مدها بالوسائل الحديثة من قنوات صرف المياه والكهرباء والغاز والماء.

– تخطيط العناصر الأساسية للطرق الرئيسية أهمهما الطريقان اللذان يربطان الجامع الكبير بالباب الغربي والباب الشرقي للمدينة القديمة وطبعاً تكون هذه الطرق مخصصة للراجلين فقط، كون حوافها تنشط بالحوانيت التجارية.

– إعادة تهيئة الشارع المقوس المجهز للراجلين وهو أيضا يمتاز بحركة تجارية محورية نظراً لقربه من مراكز المدينة.

– إعادة تطوير الشوارع المستقيمة وربطها بالطرق الرئيسية ابتداء من مركز المدينة إلى حوافها.

- إعادة تهيئة الساحة المركزية وهي ساحة السوق في النسيج القديم لأن موقعها الحالي يسمح بذلك، وهذه الساحة تقوم بدور محوري ما بين المركز الجديد للمدينة وباقي المدينة.

ومن بين اهتمامات السلطات المحلية.هي إعادة الهيكلة لما يسمى بأماكن اللقاء وهي عبارة عن ساحات خاصة للقاءات السكان وهي ذات بعد اجتماعي ورمزي لدى سكان مستاوة.

خاتمة:

لو قلنا في نهاية المطاف وكخاتمة أن أسلوب سياسة المحافظة على المدن القديمة هي أداة فعالة في التعامل مع المعالم التاريخية باعتبارها تحافظ على خصوصيات المجتمع الثقافية والاجتماعية والرمزية والتاريخية،هذا يتطلب بالتأكيد توفير إمكانات كبيرة لنتخلص من الأضرار التي أصابت ومازالت تصيب مدننا القديمة بفعل العوامل الطبيعية والظروف الاقتصادية والاجتماعية واللامبالاة وبالتالي لا مفر من القضاء على التخلف الكبير الذي تعاني منه أثارنا العمرانية سواء داخل الأوساط الحضرية أو غير الحضرية.